



مرايا العراقيين

المنتج المعماري صورة تعكس أوضاع المجتمع العراقي

ثكنات وعشوائيات.. الخوف والفقر يرسمان مخططات المدن في العراق



أمكنة غير متجانسة



الحرب وجه المدينة

والحقوق الجماعية: وهي فراغات لها موقعان، الأول هو المخيمات المنصوبة في مناطق يصعب الوصول إليها، والثاني هو المناطق المهمشة التي تحدها الأسوار والجدران.

الفراغات العامة في المدن العراقية مرت خلال السنوات الأخيرة بعمليات متواصلة من التحصين والفصل والإقصاء

وفي أحد أحياء العراق استدعى السطو المسلح على بعض المنازل اجتماع الرجال ليدلي كل منهم بدلوه في الأمر حيث كان الحديث يدور على محاور عدة كان أهمها ما هو دور القوات الأمنية في هذا الموضوع. وطوقت المنطقة بعد نقاشات بأسلاك شائكة ومنازل كاميرات تصوير وتبديل الأقفال بأقفال إلكترونية وإجراس إنذار وكلف بعض الشباب بـ"عمل مخابراتي" في تقصي حقائق السيارات التي تمر في بعض الأزقة والبحث عن يكشف لهم أمر السيارات التي تصل وتجول بغير أرقام أغلبها سيارات تكسي تمرق كالبرق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل نهابا وإيابا.

وبدا الرجال وكأنهم دخلوا الحرب حيث أنهم تناقشوا أيضا في كيفية القيام بمناورات بالذخيرة الحية؛

ورجحت عضو لجنة الخدمات النيابية منار عبدالمطلب الشديدي إقرار قانون العشوائيات قبل نهاية الدورة البرلمانية الحالية بصيغة مرضية للشعب. وقالت الشديدي إن لجنتها ضمنت صيغة مرضية للشعب ولا تثير غضب الشارع العراقي ضمن قانون العشوائيات وبالاستعانة بخبراء ومستشارين قانونيين للخروج بالقانون بالوجه الصحيح. وأوضحت أن حسم تملك العشوائيات وفق الضوابط القانونية خدمة كبيرة للحكومة والشعب، إلى جانب حسم ملف المتجاوزين على الأراضي الزراعية البعيدة عن المساحات الخضراء والبعيدة عن أي منشأ أو دائرة حكومية.

ولا يفتك المكان يستجيب للظرف الاجتماعي الذي يعيشه البلد منذ حرب 2003 وحرب الميليشيات المسلحة مع القوات العراقية والحرب الطائفية بين 2005 و2007، واستهداف المدنيين ومؤسسات الدولة، وسقوط عدة محافظات تحت سيطرة تنظيم داعش، إلى الإرهاب الذي تمارسه العتاشر المسلحة. كل هذا ترك أثرا في المكان والعمارة العراقية. ويتمثل أثر الخوف في الاحترازمات الأمنية التي تحيط بمنازل المدنيين والمسؤولين على حد سواء، وفي مؤسسات الدولة بشكل واضح، التي تحميها خرسانات مسلحة مرتفعة، تغلونها أسلاك شائكة وكاميرات مراقبة، تجعلها تبدو كأنها سجون صغيرة أو ثكنات عسكرية.

ولا يكاد يمر أسبوع أو يتحدث جرائم سطو مسلح على منازل في العاصمة وضواحيها، تنتهي بقتل سكانها أو إصابتهم وسلب أموالهم، وتبدأ أجهزة الأمن بتعقب خيوط الجريمة التي غالبا ما تسجل ضد مجهول بحسب المصادر الأمنية.

وفي هذه الأثناء يشغل أغلب العراقيين بتأمين منازلهم، خاصة الأثرياء خشية عمليات السطو المسلح، وينصبون كاميرات المراقبة وأجهزة الإنذار واستشعار الحركة حول منازلهم التي باتت تشبه الثكنات العسكرية. وكما يرى مواطنون، ما يزيد الأمر تعقيدا هو ترهل أجهزة الأمن ولولاها المتعدد لرجال دين أو أحزاب سياسية أو جهات خارجية، ما جعل المشهد الأمني مربكا للناس حتى داخل منازلهم.

وفي خضم صراعات القوى المختلفة، تاتي الحرب كاهم دافع لحركة المدن وقواها المتغيرة، جالبة معها شؤون التحصين والمراقبة والأمن والسيطرة.

المدن ساحة حروب

لم تقتصر المدن العراقية على كونها ساحة للمعارك والحروب فقط، وإنما عملت كوكالة ووسيلة للحرب ونشاطاتها، فبتمنن العالم وفراغاته تمدنت الحرب أيضا. وبذلك تكون البيئة المعمورة مشهدة مدينا للهيمنة ومكانا لممارسة القوة والسلطة وتجلي الشعور بالخوف.

العراق على كافة المستويات وفي جميع الميادين، وهذا يحتاج إلى وقفات طويلة.

ويتابع الأسمم أن المنتج المعماري في أي بلد هو انعكاس للحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد شهد العراق في الزمن السابق منتجا معماريا يعكس حالة البلد السياسية آنذاك (أسميها أنا العمارة الصدامية) حيث نشاهد التقليد الشديد لعمارة ومواد بناء القصور الرئاسية وذلك في معظم ما بُني في فترة الثمانينات ولغاية 2003.

ويقول المهندس المعماري إنه "بعد 2003 حلت مرحلة الفوضى والتسيب وتعدد متخذي القرارات، بالإضافة إلى عدم احترام ضوابط البناء على بساطتها، وطبعاً تريف المدينة بشكل كامل. فانعكس كل ذلك على الطرز المعمارية سواء في الأبنية الجديدة أو في أعمال صيانة الأبنية القائمة".

الحواسم تتمدد

لا تخلو مدينة عراقية من منطقة أو حي باسم "الحواسم"، ويحدث أن يكون في المدينة الواحدة أكثر من حي بهذا الاسم، كما هو الحال في مدن كربلاء وذي قار وبابل، حيث تنتشر هذه الأحياء التي تتخذ شكل المساكن العشوائية والبيوت المتداخلة والمتشعبة، وتزداد هذه العشوائيات سنويا، وتكثر متخذة شكل الأحياء الكاملة، في حين تغيب فيها الخدمات مثل الماء والكهرباء والطرق والصرف الصحي وغيرها.

والحواسم" اسم كان قد أطلقه الرئيس العراقي الراحل صدام حسين على معركة عام 2003 ضد التقدم البري الأميركي البريطاني لغزو العراق، والتي مهدت لاحتلال البلاد ونهاية نظام صدام. ولكن العراقيين وبعد عمليات النهب والسلب التي طالت دواير الدولة ومؤسساتها ومصارفيها، أطلقوا على عمليات السرقة تلك تعبير "الحواسم"، وصارت هذه التسمية سارية كذلك على المقرات العسكرية والأمنية التي تسكنها العوائل الفقيرة.

وذكرت هيئة المستشارين في محافظة بغداد ديسمبر الماضي أن هناك أكثر من 2.5 مليون يسكنون في العشوائيات داخل حدود العاصمة. ويقول باحثون إن هذه الحواسم لها تأثير سلبي على المنظومة المجتمعية في العراق وتضمن عدم استتباب الأمن. وأكدوا أن الوضع الذي يعيشه العراق لا يحتمل وجود مناطق سكن عشوائي، مما يشكل عبئا اجتماعيا على المناطق القريبة منها التي "شكت خلال السنوات الماضية من ازدياد الجريمة والسرقة مع تآثر البناء العشوائي والتهمج في البلاد".

وفي تقارير سابقة رات وزارة التخطيط العراقية أن أزمة العشوائيات تحتاج إلى سبع سنوات للقضاء عليها، هذا في حال توفرت الأموال الكافية لها وسار العمل بشكل طبيعي وإيجابي.

لطالما كانت العمارة العراقية امتدادا للفكر العمراني وتتاجا للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يعيشها العراقي. لكن العمارة لم تصل إلى هذا المستوى من التردي إضافة إلى تحول بعض المناطق إلى بؤر للجريمة والفقر تحولت مناطق أخرى إلى ما يشبه السجون.

بغداد - كانت العمارة العراقية حتى سبعينات القرن الماضي امتدادا للفكر العمراني في الفترة الملكية، وتتاجا لظرفها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، قبل أن تعصف بها التحولات السياسية والاجتماعية منذ بداية الثمانينات.

وتمثل المدن مرايا لأناسها، برغباتهم ووجوانبهم المضيئة والمظلمة. فهي تركيبات من هويات متميزة وكيونات حية لا تتوقف عن التغيير، تقص علينا حكايا أزمنة انكشف بعضها وما زال بعضها الآخر مستورا؛ حكايات ذكريات وانظمة منسية.

الذوق العام

قبل أن تكتظ المدن، تكونت المنازل في المدن العراقية من طابق واحد، وكانت مسورة بجدران منخفضة، باستثناء بعض المدن التي شاعت فيها الشقق والعمارات السكنية، ورغم ذلك كانت الحدائق جزءا من تصميم مؤسسات الدولة.

ولطالما امتازت العاصمة العراقية وبعض المحافظات على مدار قرون عديدة بالتصاميم الجذابة والمباني المستوحاة من التراث البغدادي، إلا أن تلك المعالم اختفت خلال السنوات الماضية، ولاسيما بعد 2003، نتيجة الحروب والإهمال الذي طالها، حيث تحولت بعض تلك البيوت التي تحتوي على "الشناشيل" إلى مخازن لمختلف البضائع أو بيوت مهجورة ومتهاككة.

والشناشيل تحفة معمارية تمتد فوق الشارع أو الرقاق أو داخل الفناء الداخلي للمنزل

